الحركة العلمية والأدبية فى دار الخليفة العباسى (١٣٢ / ٢٣٢هـ - ٧٤٩ / ٨٤٧م) (هيكل استقصائى)

دكتور / طائف كمال الأزهرى

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى - قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة حلوان

الحركة العلمية والأدبية فى دار الخليفة العباسي
(١٣٢/٢٣٢هـ-٧٤٩/٨٤٧م)
[هيكل استقصائي] (*)

منذ وصول العباسيين للحكم فى عام ١٣٢هـ/٧٤٩م حتى انهيار نفوذهم مع العنصر التركي عام ٢٣٢هـ/٨٤٧م، أو مع البويهيين عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م طبقا لدارسي التاريخ فإن معظم الدراسات انصبت على التاريخ السياسي والعسكري وعلى حد ما الاقتصادي ورغم امتداد الخلافة العباسية الزمني إلى أكثر من ذلك حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

وفى ظل تلك الخلافة ظهرت مؤسسة المدرسة فى نيسابور فى أقليم خراسان فى حدود القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ثم انتشرت بشكل واسع على يد وزير السلاجقة العظيم نظام الملك ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. ورغم ذلك فإن تاريخ الحركة العلمية والأدبية يظل غامضاً إلى حد كبير فى كافة مراحل الخلافة العباسية. ورغم اهتمام المؤرخين والباحثين بدار حكمة الخليفة العباسي المأمون (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) وهي للصفوة فقط، فإن كثير من النواحي ما زالت غير مدروسة بالشكل المستحق.

فى هذه الدراسة الاستقصائية نحاول بحث الآتي : ثقافة الخليفة وتعليمه والذين قاموا على تأديبه وإعداده. ثم كيف اهتم الخلفاء بالعلماء وأخيراً ماهية النشاط العلمي فى دار الخلافة.

ثقافة الخليفة وتعليمه ومؤدبوه :

(ما ورثت الآباء والأبناء شيئاً أفضل من الأدب : إنها إذا ورّثتها الآداب كسبت بالآداب الأموال والجاه والإخوان والدين والدنيا والآخرة، وإذا أورثتها الأموال

(*) دكتور / طائف كمال الأزهري - أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة حلوان .

تلفت الأموال وقعدت عُدْماً من الأموال والآداب، وقيل : أربعة يسود بها العبد : العلم والأدب والفقه والأمانة)[١].

لذا كان الخلفاء من أحرص الناس على تعلم العلم والأدب، وتعليمه لأبنائهم. فقد كانوا يتعاهدونهم منذ الصغر، ويسلمونهم إلى مؤدبين وأساتذة يقومون بتربيتهم تربية صالحة، ويلزمونهم أن يحصلوا المسائل، ويحفظوا القواعد ويقرعوا الكتب ويرووا الأخبار، ويتعلموا الفنون المتنوعة[٢].

ومن أشهر الوسائل في تعليم أبناء الخليفة، تعيين معلم ومؤدب لهم، كذلك إرسالهم إلى الكُتّاب لتعلم القراءة والكتابة[٣]. وعلى الرغم من عناية الخلفاء بتعلم أبنائهم إلا أن الرفاهية والترف دفعت بعضهم تدليل أبنائهم فنشأ بعضهم ضعيف القراءة والكتابة[٤]. وكان بعض الخلفاء لشدة حرصه على الأدب والعلم يؤدب أبناؤه وأبناء إخوته بنفسه[٥].

وبالنسبة لأوائل خلفاء العصر العباسي الأول، فقد أخذوا علمهم بالطريقة القديمة والتى سار عليها العلماء والمحدثين فى صدر الإسلام، وهي الرحلة فى طلب العلم الحديث[٦].وإن كانت استمرت هذه الطريقة عند باقي الخلفاء، إلا أن اعتمادهم

---

(١) أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) لباب الآداب، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الجيل ، بيروت ، ط١، ١٩٩١م، ص٢٢٩.

(٢) الدنيوري : الأخبار الطوال، بيروت ١٩٧٠، ص٣٨٧؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٩، بيروت ١٩٨٢، ص٢٨٧.

(٣) البيهقي : المحاسن والمساوئ، ص٦٣٩؛ أبن الجوزي : المنتظم، ج١١، ص٢٧.

(٤) مثل المعتصم. أنظر تفاصيل الخبر، أبن العمراني: الأبناء ، ص١٠٦ ، ١٠٧، القلقشندي: مآثر الأنافة ص٢١٨، السيوطي : أخبار الخلفاء ص ٢٩١.

(٥) مثل المأمون. فقد أدب الواثق أبن أخيه المعتصم. أنظر أبن العمراني : المصدر السابق ص١١١.

(٦) أبن قتيبة : ألإمامة والسياسة ج٢، بيروت ١٩٩٤، ص٣٢٢؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٧، ص٨٣. ومن أشهر الخلفاء فى الرحلة لطلب العلم : أبو جعفر المنصور.

على المؤدبين والمربين فى تلقي العلم كانت أكثر شيوعاً، والسبب يعود كما أسلفت لزيادة الرفاهية فى حياة أواخر خلفاء العصر العباسي الأول.

مؤدبو الخلفاء ومعلميهم :

من رسوم دار الخلافة المتبعة فى العصر العباسي الأول تعيين مؤدب أو مربي للأمراء الصغار. وكان يتخذ مربي واحد لجميع أبناء الخليفة(١)، أو يجعل لكل أبن مربي خاص به(٢).

ولوحظ أن بعض أبناء الخلفاء – خاصة إذا كان ولي عهد – قد أدبه وعلمه عدد كبير من المؤدبين والعلماء، ووصل عدد من أدب الأمين بن هارون الرشيد ما يقارب من أحد عشر رجلاً بين مؤدب ومعلم ومربي(٣).

وقد تعددت ألقاب المربي، فيقال له : شيخ، أو أستاذ، أو مؤدب، أو معلم(٤)، وكلها تصب فى قالب واحد وهو تعليم أبناء الخلفاء العلوم والفنون المتنوعة، وتأديبهم بالآداب القديمة، وترسيخ الأخلاق الحسنة فى نفوسهم، مما يؤهلهم لأن يكون لهم شأن فى الدولة.

---

(١) مثل الكسائي، كان يؤدب محمد الأمين وعبد الله المأمون. أنظر الدنيوري: الأخبار الطوال ص٣٨٧.

(٢) مثل عبيدة بن حميد بن صهيب مؤدب الأمين؛ أنظر ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١٨٧.

(٣) هذا العدد حسب إحصاء الباحث من المصادر التى بين يديه لمؤدبوا ومعلموا الأمين أنظر منها : الدنيوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٧، ابن النديم : الفهرست، ص٩٧، التنوخي : الفرج بعد الشدة، ج٣، ص١٦٣، ابن الجوزي : المصدر السابق ج٩، ص١٨٧، ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٩٠. أنظر الجدول الموضح فيه أسماء جميع المؤدبين.

(٤) ابن العمراني : الأبناء، ص٧٧، ابن الجوزي : المصدر السابق ص٩٥، ص١٦٨ ، ١٨٧، أبن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٢، ص١٣٠.

الخليفة	اسم مؤدبه أو معلمه
ابن العباس السفاح	إبراهيم بن محمد الإمام[١]
أبو جعفر المنصور	عطاء بن ياسر
محمد المهدي	المفضل الضبي – الوليد بن الحصين الشرقي
موسي الهادي	أبو سعيد محمد الجزري
هارون الرشيد	المفضل الضبي – يحيى بن خالد – حمزة الزيات – أبو عبيدة معمر بن المثني – على بن حمز الكسائي.
محمد الأمين	الفضل بن يحيى – على بن المبارك الأحمر – على بن حمزة الكسائي – عبيدة بن حميد الكوفي – يحيى بن زياد – قطرب النحوي – حماد عجرد – جبرائيل بن بختيوشع – الفراء – جفعر بن محمد الأشعث – عبد الملك بن قريب الأصمعي
عبد الله المأمون	جعفر بن يحيى – على بن حمزة الكسائي – يحيى بن المباركَ اليزيدي – يحيى بن زياد الفراء – الحسن اللؤلؤي – بشر الحريسي.
محمد المعتصم	ابن أبي داؤد
هارون الواثق	هارون بن زياد

كذلك كان يخصص لأبناء الخلفاء حاضنات من النساء، وغالباً ما يكون ذلك لصغار السن[٢]، وبذلك يقوم على شئون أبناء الخلفاء الحاضنة والمربي لمزيد من الرعاية والعناية بهم.

---

(١) ذكر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٢٦، أن السفاح حدث عن أخيه إبراهيم بن محمد وهذا يعني أنه تعلم منه الحديث، ولم يجد الباحث فى المصادر التى بين يديه اسم مؤدب أو معلم لأبي العباس السفاح.

(٢) الاصفهاني : الاغاني ج١٠، ص٣١٠، التنوخي : الفرج بعد الشدة، ج٢، ص٥٧.

ولقد كان الخلفاء يتحرون فى اختيار مؤدب أبنائهم، ويدققون فى انتقائهم، فكانوا من أفاضل العلماء، والفقهاء، والوزراء، والمتبحرين فى اللغة والآدب، حتى أن الخليفة المهدي عرض على القاضي شريك أن يعلم أبناءه ويحدثهم الحديث[١]، كما أن الرشيد قد أوكل إلى على بن حمزة الكسائي – أحد الأئمة فى القراءة والنحو واللغة – تأديب ولديه الأمين والمأمون[٢].

ولأهمية دور المؤدب، ولكي تتحقق المنفعة المبتغاة من توجيهه وتعليمه، يؤمر – غالباً – بالإقامة فى قصر الخلافة[٣].ليكون قريباً من أبناء الخليفة، وبذلك يستطيع أبناء الخليفة أن ينهلوا من مصدر العلم والأدب طوال اليوم والليلة. ومن تقاليد دار الخلافة أن تفرد داراً مجهزة بجيمع ما يحتاج إليه المؤدب من فرش وخدم، ويجري عليه كل شهر مالاً يكفيه[٤].

وللمؤدب مكانة عظيمة فى قصر الخلافة حتى أن الخلفاء قد جعلوا بعض المؤدبين فى طبقة الجلساء والندماء[٥]. وهي طبقة فى قصر الخلافة من أقرب الطبقات لدي الخلفاء وأعلاها. وكان هارون الرشيد يصحب معه الكسائي مؤدبه ومؤدب ولديه الأمين والمأمون، فى سفره[٦].

كما أن بعض المؤدبين قد بلغت مكانتهم مبلغاً خطيراً فى سياسة دار الخلافة. حتى أصبح المؤدب فى فترات معنية هو المدبر الأول فى سياسة الدولة. وأقرب مثال على ذلك سيطرة يحيى بن خالد البرمكي على سياسة الدولة فى السنوات الأولى من

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٣، ص٣٢٠، ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٨٧.

(٢) الدنيوري: الأخبار الطوال ص٣٨٧، ابن النديم الفهرست، ص٩٦، ياقوت : المصدر السابق، ج٤، ص٨٧.

(٣) على العمرو : أثر الفرس السياسي، دمشق ١٩٨٩، ص٢٥٩.

(٤) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج٣ ، بيروت ١٩٩٥، ص١٦٣.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ج٤، ص٨٨، مثل الكسائي رفعة الرشيد لمرتبة الندماء والجلساء.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٣٠.

خلافة هارون الرشيد. فقد كان المهدي مسندا تربية الرشيد ليحي بن خالد ليعلمه ويؤدبه منذ صغره، حتى أن هارون كان يدعوه أبا[١]. فلما ولي الخلافة الرشيد أعطي خاتم الخلافة ليحيى وقلده الأمور[٢].

وبهذا يتأكد لنا أن المؤدب من الوظائف الخطيرة فى دار الخلافة فيتعين على الخلفاء أن يختارونه بعناية وبعد نظر، وألا يكون هدفهم محدداً فى تلقين أبنائهم العلوم والمعارف، إنما يكون هدف المربي أو المؤدب، بناء شخصية تحمل جميع المواصفات التى تؤهل هذا الابن لأن يكون له شأن فى المستقبل. فهو إما ولي عهد أو خليفة.

إن مكانة المؤدب فى نفوس أبناء الخلفاء، وما يبدون من طاعة وخضوع له يفوق مكانة أي موظف آخر فى دار الخلافة، وقد تستمر هذه المكانة العظيمة حتى بعد وصولهم إلى الخلافة وقد كان الرشيد يصب الماء على يدي أحد معلميه، مبرراً موقفه بأنه إجلالاً للعلم[٣].

ويذكر لنا ابن النديم[٤] موقفا للأمين والمأمون مع مؤدبهما الكسائي، وعلى مرآي من الرشيد فيقول : "أشرف الرشيد على الكسائي وهو لا يراه فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها فابتدرها الأمين والمأمون فوضعاها بين يديه فقبل رؤسهما وأيديهما ثم أقسم عليهما إلا يعاودا، فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أي الناس أكرم خادماً قالوا : أمير المؤمنين أعزه الله قال : بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون..".

---

(١) جاءت هذه التسمية لأن زوجة يحيى بن خالد قد أرضعت هارون مع ابنها الفضل بن يحيى فيصح يحيى والد هارون من الرضاعة. أنظر الخبر كاملاً : ابن الجوزي : المنتظم ج٩، ص١٣٢، ابن العماد : شذرات الذهب، ج١، ص٣٢٧.

(٢) ابن العماد : المصدر السابق، ج١، ص٣٢٧، طه الحاجري : قصر الرشيد، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٩م، ص٤١.

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٥١.

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٩٧، وكذلك أنظر : ياقوت : معجم الأدباء ج٤، ص..

ولم يكن الخليفة ليسمح – لأي من كان – أن يخدمه أبناءه لولا المكانة العظيمة للمؤدب في الدولة وفي دار الخلافة، فقد كان يحظى بمكانة عظيمة لدي الخليفة[١].

وكان المأمون يقول : "لا يحسن ترفع الرجل عن ثلاثة والده وسلطانه ومعلمه"[٢].

ولما دخل المؤدب الواثق عليه، أكرمه غاية الكرم، ولما سئل عن ذلك قال: "هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله"[٣].

مهام المؤدب :

إن المهمة الأساسية التى يكلف بها المؤدب مأخوذة من اسمه، فهو يؤدب ويربي الصغار من أبناء الخلفاء، وكان الخلفاء العباسيين يوصون مؤدبي أبنائهم بوصايا عظمة، يؤكدون فيها على المؤدبين بتعليم أبنائهم ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، بدءاً بالعلوم الدينية والأدبية والعلمية. وأيضاً يؤكدون عليهم تعليم أبنائهم الآداب ومكارم الأخلاق والحرص على اغتنام الأوقات بما يفيد، كما يأمروهم بإتباع الأسلوب المناسب فى التأديب والتربية، فيندرجون معهم من أسلوب اللين فإن نفع، وألا فعليهم بإتباع أسلوب الشدة والغلظة[٤].

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٢، ص١٣٠، ابن العماد : شذرات الذهب ج١، ص٣٢١.

(٢) ابن العماد : المصدر السابق، ج٢، ص١٩.

(٣) مؤدب الواثق هارون بن زياد. أنظر السيوطي : المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٤) هذه الوصايا اجتمعت فى وصية الرشيد لمؤدب ولده الأحمر النحوي. للوقوف على نص الوصية انظر : المسعودي : مروج الذهب، ج٣، ص٣٦٢، البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٦٣٩، أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب، ج٣، ص٨٥.

وكان المؤدب غالباً – ما يقيم فى دار الخلافة، وقد تفرد له داراً يتحول فيها مع أبناء الخلفاء، لتكون مكاناً لتأديبهم وتعليمهم[١].

والنموذج الثاني فى التأديب، يعتمد على أن يأتي المؤدب إلى أبناء الخلفاء يوم فى الأسبوع، يتفقدهم ويعلمهم العلوم والآداب[٢]،وهذا النموذج فى التربية يتخذ فى سن متقدم لأبناء الخليفة. لأنهم يكونوا فى النموذج الأول قد تلقوا الأساسيات فى العلوم والآداب، وفى النموذج الثاني يتعلمون ما تبقى من الآداب وطريقة التواصل مع الغير.

ولم تكن مكانة أبناء الخلفاء عائقاً أمام استخدام بعض المؤدبين لأسلوب الشدة، بل وأسلوب الضرب – أحياناً – فى تربية وتأديب أبناء الخلفاء وتعديل سلوكهم بما يوافق أمنيات الخلفاء فى أبنائهم. فهذا الأحمر النحوي مؤدب الأمين، يشدد عليه فى التأديب ويمنعه الساعات التى يتفرغ فيها للعب واللهو، مع أنه مرشح للخلافة وولي العهد، حتى أن والدته زبيده قد طلبت من المؤدب أن يعطف علي أبنها ويرق عليه[٣].

كما أن أسلوب الشدة الذى احتذاه بعض المؤدبين مع أبناء الخلفاء اتخذ منحني آخر، وهو استخدام أسلوب الضرب، خاصة إذا صدر خطأ من ابن الخليفة. ولم يكن يعترض أبناء الخلفاء على هذا، بل أنهم يرون أنهم يحتاجون إلى الأدب[٤].

ولم يكن المؤدب ليجرؤ على استخدام هذا الأسلوب مع أبناء الخليفة، إلا لأن الخليفة قد سمح له بذلك، بعد أن أعطاه الصلاحيات الواسعة فى اتخاذ أسلوب الشدة إذا لزم الأمر فى تربية وتأديب أبناءه.

---

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج٣، ص١٦٣.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج١٠، ص١٧٩، ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٩٠.

(٣) الدنيوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٧، البيهقي : المصدر السابق، ص٦٣٩.

(٤) تعرض المأمون لضرب مؤدبه بسبب تأخره فى المجيء إليه. أنظر الخبر كاملا : البيهقي : المصدر السابق، ص٦٤١، الازدي : أخبار الدول المنقطعة، ص١٦٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٧٥.

ولحرص الخلفاء على تتبع مراحل تأديب أبنائهم، كانوا يخضعونهم لشيء مثل الامتحان. فعندما ينهي الأبناء تعلمهم يعمد الخليفة إلى استعراض ما تم تعلمه عمليا، فإذا أعجب بأداء أبنه فإنه يكافئ المؤدب بالهدايا والصلات والجوائز الثمينة(١).

وهناك أسلوب آخر فى امتحان أبناء الخلفاء، وهو أن يطلب الخليفة مناظرة أبنه من قبل بعض العلماء والأدباء، ليسمعوا منه ما وصل إليه فى تعليمه(٢).

وقد كان الرشيد يعرض أبناءه على بعض من يثق فى علمهم وفهمهم مثل الأصمعي، فيسأل أبناء الخليفة فى فنون الأدب والعلم، ثم يطلب منه الحكم عليهم وتقييم تربيتهم وأدبهم وعلمهم(٣)، ليتأكد من وصولهم إلى أعلى مراتب العلم والأدب.

وكان الخليفة ربما فضل أحد أبناءه على الآخر بسبب حسن أدبه وتربيته وفضل علمه عن أخوته. وهذا ما حدث مع الرشيد فى تفضيله عبد الله المأمون على محمد الأمين فعندما عارضته والدة الأمين برهن لها على حسن تربية المأمون وحسن تصرفه(٤).

ومن مهام المؤدب – فضلاً عما سبق – أنه كان يكتب لأبن الخليفة ويقوم على أعماله ودواوينه(٥).

كذلك فقد كان بعض المؤدبين يتكلفون بأخذ البيعة بولاية العهد من الخليفة(٦)، ويحرصون عليها، ليصل الابن الذي يقومون على تربيته إلى منصة الخلافة، وبذلك سيحقق مكاسب كبيرة من ورائه.

---

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة، ج٣، ص١٦٤.
(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج١٠، ص٥٠.
(٣) الدنيوري : الأخبار الطوال، ص٣٨٨، أورد المسعودي : مروج الذهب ج٣، ص٣٦٠، نفس الخبر ولكنه ذكر أن الرشيد عرض أبناءه على الكسائي، الذي أثني على أبناء الرشيد بكلمة تكاد تكون تحفة فى الأدب العربي. وربما أن الرشيد عرض أبناءه مرتين على الأصمعي وأخرى على الكسائي ليتأكد من مستوي تربية أبناءه وتأديبهم.
(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر ابن الجوزي : المنتظم ج١٠، ص٥٠.
(٥) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٩٣.
(٦) ابن العمراني : الأنباء، ص٧٩.

العلوم والفنون التى يتعلمها أبناء الخلفاء :

ركز هذا المبحث فى دراسته لثقافة الخليفة على ذكر أبناء الخلفاء، وذلك على اعتبارهم مستقبلاً خلفاء.

وذكر الثعالبي[1] فى معرض حديثه عن (ساسة الملك أبنه) ما نصه : "ينبغني إذا بلغ أبن الملك[2] سن التعليم والتأديب وانتهي إلى حد التدريس والتلقين أن يجمع لـه فضل كل علم من القرآن والتفسير والتأويل واللغة والغريب والنحو والشعر والعروض والحساب والمنطق والبرهان والهندسة والتنجيم والجدل والكلام والفروسية على الخيل والعمل بأصناف السلاح وسياسة الجيش وتدبير الحرب ورواية السير المسطورة ودراسة العهود المعهودة".

فى هذا النص حصر شامل لما يحتاجه أبناء الخلفاء من العلوم والفنون النظرية وغير النظرية، وإن لم يستطع أبناء الخلفاء الإلمام بجميع هذه العلوم والمعارف، فإنه يكفي أن يأخذ جزء من كل علم.

وقد اشتهر بعض الخلفاء العباسيين بالحرص على العلم، والرحلة فى طلبه. فهذا الإمام مالك بن أنس يمتدح علم أبي جعفر المنصور بقوله : "ثم فاتحني [ابو جعفر] فيمن مضي من السلف والعلماء، فوجدته أعلم الناس بالناس، ثم فاتحني في العلم والفقه، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه، وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظاً لما روي، واعياً لما سمع"[3].

وقد أمر ابنه محمد المهدي بالرحلة إلى الإمام مالك لأخذ العلم والفقه منه والقراءة عليه[4].

---

(١) الثعالبي: آداب الملوك، ص٢٠٢.

(٢) يذكر الثعالبي لقب الملك بدلاً من الخليفة، وربما يعود هذا إلى كثرة نقله من كتاب الجاحظ : التاج. والذى يتناول آداب ورسوم ملوك الفرس.

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج٢، ص٣٢٢.

(٤) ابن قتيبة : المصدر السابق، ج٢، ص٣٢٣.

ونبعت هذه العناية بتعلم أبناء الخلفاء، من إيمانهم بأن التربية الأولى والبيئة الصالحة والتى يعيش فيها الإنسان منذ صغره تؤثر فيه وفى سلوكه عند الكبر. لذا فقد درس أبناء الخلفاء على أيدي كبار العلماء والشيوخ الذين عرفوا بالورع والتقوى.

وكان لحرص الخلفاء على إتقان أبنائهم لكافة العلوم، فقد خصصوا لكل علم شيخ أو معلم يلقن أبنائهم العلم الذى يتقنه هذا العالم، لذا فإن أبناء الخلفاء يتعلمون على أيدي عدد كبير من العلماء(١).

هذا ولم تكن العلوم النظرية وحدها محط اهتمام الخلفاء لتعليمها لأبنائهم، إنما كانت العلوم العسكرية والرياضية وكذلك العلوم التطبيقية كالطب، لها اهتمام بالغ، كما حرصوا على تعليمهم آداب حضور مجالس الخلفاء والإذن(٢).

وأول العلوم وأجلها حفظ القرآن الكريم، وقد حفظ بعض الخلفاء القرآن كاملا، ويقرءونه على علماء أجلاء(٣)،ثم يأتي بعد ذلك تعلم الحديث وحفظه والرحلة فى طلبه، ولقد كان الخلفاء يهتمون بالحديث وأهله ويرغبون فى سماعه(٤)، هذا ولقد رحل الأمين والمأمون إلى الكوفة والى مكة طلباً للحديث(٥)، وقد حدثهما ابن إدريس – أحد محدثي الكوفة – بمئة حديث، فقال المأمون : يا عم أتأذن لي أن أعيدها حفظاً؟ قال : افعل فأعادها، فعجب من حفظه(٦).

---

(1) M.R, ART, MAM, IN E.I.2.

(٢) ابن طيفور : كتاب بغداد، ص٣٦٠، الثعالبي : آداب الملوك، ص٢٠٢، محمد على الهرفي : هارون الرشيد بين السيرة الواقعية والسيرة الشعبية، مطبعة الخط، الدمام، د.ت، ص٤٢ ، ٤٣.

(٣) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج٣، ص١٦٣، على حسن الخربوطلي : المهدي العباسي، ص١٨.

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج٢، ص٣١٦، ابن العماد : شذرات الذهب، ج١، ص٣٣٦.

(٥) ابن الجوزي : المنتظم، ج٩، ص٢٠٥.

(٦) المصدر السابق، ج٩، ص٢٠٥، الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٢٧٦.

وقد يستمر طلب الحديث وسماعه حتى بعد تولي الخلافة، لذا كان معظم خلفاء العصر العباسي الأول يروون الحديث، إما عن آبائهم من بني العباس، أو عن غيرهم من رواة الحديث[١]. ومن أشهر الخلفاء فى مجال رواية الحديث، المأمون حتى أنه فى يوم قال لجلسائه : "أريد أن أحد"، ثم قال : "ضعوا لي منبراً، ثم صعد، فحدث بنحو من ثلاثين حديثاً، ونزل"[٢].

ومن العلوم الدينية التى حرص الخلفاء على تعليمها أبنائهم، الفقه ذلك أن علم الفقه فى الدين يمكن متعلمه من الحكم والفصل فى القضايا والنزاعات، وإقامة حدود الله، ومعاقبة كل متجاوز لهذه الحدود[٣].

واشتهر بعض الخلفاء فى معرفتهم بهذا العلم ومنهم الرشيد والمأمون، وكانوا على المذهب الحنفي[٤].

ولأن الخلفاء العباسين من قريش، القبيلة التى تنبع منها الفصاحة لذا فقد اهتم الخلفاء بتعليم أبنائهم الأدب وما يندرج تحته من علوم تابعة له وأهمها النحو والشعر والغناء، وأمثال العرب وأيامها.

واشتهر عدد من الخلفاء العباسيين بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر وتذوقه[٥]، ومن أشهر الخلفاء فى قول الشعر، الواثق، كما كان أعلم الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان علمها نحو مائة صوت، كما كان حاذقاً بضرب العود[٦].

---

(١) أنظر بعض الأحاديث التى رواها الخلفاء العباسيين، ابن الجوزي : المنتظم، ج١٠، ص٥٣ ، ١٧٣، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص٦٨٠، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص ١٩٨، ابن العماد : شذرات الذهب، ج١، ص٣٦٦.

(٢) انظر الخبر كاملاً، الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٢٧٥.

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢، ص٣٢٢، الذهبي : المصدر السابق، ج١٠، ص٢٧٧.

(٤) ابن النديم : الفهرست ص١٦٨، الذهبي : المصدر السابق ج٩، ص٢٨٧، ابن تغري بردي : المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٥.

(٥) للوقوف على نماذج من قصائد الخلفاء انظر : ابن وجيه : النبراس، ص٤٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٢٨٧، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٢، ص٢٢٧.

(٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٩٨، زهير الكسبي : موسوعة خلفاء المسلمين، ص٤٨.

وقد عني الخلفاء بالعلوم العقلية والتطبيقية، مثل الفلسفة، والكلام والنجوم، والطب[١]، ولأن أصول هذه العلوم يونانية ورومانية، لذا أمروا بترجمتها بعد أن طلبوا إحضارها من كنائسهم ومكتباتهم. ويعد الخليفة المأمون "نجم ولد العباس فى العلم والحكمة"، وقد كان أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم، وهو الذى استخرج كتاب اقليدس من الروم، وأمر بترجمته وتفصيله[٢]. وكانت هذه العلوم لا يتم تدريسها لأبناء الخلفاء إلا من سن متأخر، بعد أن ينضج الفكر ويتزن العقل، ويتأسس بأساس العقيدة الصحيحة الراسخة، لأن هذه العلوم – وخاصة الفلسفة وعلم الكلام – ربما تؤدي إلى انحراف الفكر إذا لم يكن له قاعدة ثابتة.

تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء :

لقد كان الخلفاء العباسيون يدركون أهمية العلم ونشره، لذا حرصوا بشدة على تشجيع العلماء على بذل جهدهم لنشر العلم بين الناس، ولقد حموا بذلك كثير من العلوم والفنون فقد كانوا يفرغون العلم للعلم، ويرجون عليهم ما يغنيهم ويسد حاجتهم[٣].

ويعد الخليفة المنصور – ثاني الخلفاء العباسيين – أول من عني بالعلوم[٤].

وتجلت مظاهر تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء بأشكال عديدة منها :

إجلال العلماء :

يعلم الخلفاء العباسيون أن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده، لأنهم صرفوا حياتهم ووقتهم إلى أجل وأعم ما يمكن أن يُشتغل به، وهو العلم والفكر والأدب[٥]. ولقد نبع هذا الإجلال والتعظيم للعلماء من التربية التى تلقاها الخلفاء فى صغرهم والتى تركز على التواضع واحترام العلماء وإجلالهم.

---

(١) ابن طفور : كتاب بغداد، ص٣٦، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٦٩-٢٧٦.

(٢) الدينوري : الإخبار الطوال، ص٤٠١.

(٣) الثعالبي : آداب الملوك، ص٣٩، إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص١٤٨.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص١٢٠.

(٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص١٢٠.

ولما ولي أبو العباس الخلافة، كان من أول أعماله، أن بعث إلى المدينة ليقدم إليه من كان فيها من أهل العلم ليستفيد منهم، وينتشر علمهم فى العراق، وتابع أبو جعفر المنصور هذه السياسة، فحصص علماء المدينة على القدوم إلى بغداد، ويسر لهم سبل العيش الكريم، وتابع المهدي العناية بعلماء المدينة، فأستقدم عدداً منهم وأوطنهم بغداد، وقربهم إليه وأغدق عليهم العطاء، وكانت لهم فى بغداد قطيعة وقنطرة ومسجد ومقابر خاصة بهم(١).

وحرص الخلفاء على جلب علماء المدينة إلى بغداد يعود إلى أن علماء المسلمين تلقوا علومهم عن الصحابة والتابعين – خاصة فى العلوم الدينية – ولأن علمهم لم يختلط بعناصر أجنبية خاصة فى علوم اللغة العربية.

ولقد دأب الخلفاء على مجالسة العلماء فى دار الخلافة، حيث يتم استدعائهم لحضور مجلس الخليفة، فإذا حضروا يتم إكرامهم غاية الإكرام، فهذا المهدي عندما استدعي احد العلماء الزهاد، وهو صالح بن بشير المري(٢)،وحضر إلى دار الخلافة فدخل راكباً حماره، حتى دنا من بساط الخليفة وهو راكب، فأمر الخليفة أبنيه – وليي عهده موسي الهادي وهارون الرشيد – أن يقوما إلى هذا العالم لينزلاه عن دابته، فأسرعا إليه وأنزلاه(٣). وبذلك فإن المهدي يعطي لأبنائه درساً فى إجلال واحترام العلماء.

---

(١) صالح أحمد العلي وآخرون : العراق فى التاريخ، بغداد ١٩٨٧ ص٣٨٩، على حسن الخربوطلي : المهدي العباسي ، ص٢١٤.

(٢) أحد الزهاد العباد، من أهل البصرة، كان كثير البكاء، وكان واعظاً، توفي عام ١٧٦هـ/٧٩٢م. أنظر ابن الجوزي : المنتظم، ج٩، ص٢٤، ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٥٩٧.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص٥٩٧.

واشتهر الرشيد بتواضعه الشديد وحسن معاملته للعلماء، وإجلاله لهم، فقد كان فى أحد مجالسه وبعد فراغه من الأكل وفى معيّته أبو معاوية الضرير(١)، فأمر بالماء ثم صب بنفسه على يد العالم أبي معاوية، فقال له الخليفة هارون : يا أبا معاوية تدري من يصب عليك؟ قال : لا، قال الرشيد : أنا، فقال أبو معاوية : أنت يا أمير المؤمنين، قال : نعم إجلالاً للعلم(٢).

ولقد صور لنا الرشيد فى هذا الخبر نموذجاً رائعاً فى تلاحم السياسة مع العلم، وأن السياسة لا يمكن أن تقوى وتثبت دعائمها من غير العلم، لذا فقد فهم الرشيد هذه القاعدة وأراد أن يحتوى قصره على أكبر عدد من العلماء للإفادة منهم والاستنارة بآرائهم ومشورتهم.

ولقد كان إجلال الخلفاء العباسيين للعلماء دافعاً لهم إلى زيارة العلماء فى منازلهم وتفقد أحوالهم(٣).

كذلك كانوا يصحبونهم معهم فى أسفارهم وفى رحلة الحج، فالخليفة هارون الرشيد إذا حج، أحج معه مائة من الفقهاء(٤).

التشجيع المادي للعلم :

إن حصيلة الخلفاء العباسيين العلمية دفعتهم إلى تشجيع الحركة العلمية، والحث على طلب العلم، وفى سبيل ذلك صرفوا الأموال والاعطيات الباهظة للمحدثين والأدباء والشعراء حتى أن الخليفة المنصور، والذي عرف باقتصاده فى إخراج المال،

---

(١) ابو معاوية هو محمد بن حازم، عاش فى عهد الرشيد، عالم فى علوم اللغة وقد أخذ عنه عدد من العلماء. أنظر ياقوت : معجم الأدباء ج٥، ص٣٣٦.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٣٢٣، ابن الطقطقي : تاريخ الدول الإسلامية، ص١٩٤.

(٣) مثل الرشيد وأبنه المأمون. أنظر الازدي : أخبار الدول المنقطعة، بيروت ١٩٦٩، ص١٣٠ ، ١٥٧.

(٤) الازدي : المصدر السابق، ، بيروت ١٩٦٩، ص١٣١.

كانت أمواله توجه لعباقرة العلماء، من أجل إحداث التنافس فى ابتكار الجديد وتطوير الحركة العلمية، كما كان لا يعطي إلا الشاعر المتميز فى شعره[١].

وفى عهد الرشيد، أمر بوضع سلم رواتب لطلبة العلم، فمن حفظ القرآن وأقبل على طلب العلم، وحضر حلقاته، يكون راتبه ألفي دينار، ومن حفظ القرآن وروي الحديث، وتفقه فى العلم وتبحر فيه، يكون راتبه أربعة آلاف دينار[٢].

وكان المأمون يرسل الأموال لتقسم فى شيوخ الحديث، لأنه رأي فيهم قلة حال، فأراد أن يعينهم ويشجعهم على ما خصصوا له أنفسهم، وكان راتب العالم يصله فى بلده، ولا يشترط أن يكون من الملازمين لدار الخلافة[٣].

وهذا غيض من فيض من نماذج تشجيع الخلفاء المادي للعلماء وقد يتسع بنا المقال لو تم حصر كل ما ورد فى هذا المجال.

تشجيع الخلفاء التأليف والتصنيف :

وصل المسلمون فى العصر العباسي الأول إلى مرحلة التأليف والتصنيف، فقد كان الأئمة والعلماء يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف غير مرتبة حتى عام ١٤٣هـ/٧٦٠م، حيث شرع العلماء المسلمون فى تصنيف الحديث والفقه والتفسير، وكتب اللغة والتأريخ[٤]، ويرجع الفضل إلى أبي جعفر المنصور، فى توجيه العلماء إلى هذا الاتجاه. فقد خاف المسلمون أن يكون موت العلماء إيذانا بالعبث بشريعية الإسلام، لذا أرغَب المنصور الإمام مالك بن أنس – عندما زاره بالمدينة – بجمع أحاديث الرسول صلي الله عليه وسلم، مما يطمئن إلى سنده، ويثق فى رواته، ويتحقق بأنه مرفوع إلى رسول الله، ليجعله المسلمون مرجعهم فى العبادات

---

(1) H. KENNEDY, ART, MANSUR, E.I.2

(٢) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها، ص٣٥٧.

(٣) ضيف الله الزهراني : المرجع السابق، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٣٠.

والأحكام[١]، حيث قال له : "يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودَوِّنه، ودون منه كتبا، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ بن مسعود، وأقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم، لنحمل الناس – إن شاء الله – على علمك وكتبك، ونبثها فى الأمصار، ونعهد إليهم أن لا يخالفوها، ولا قضوا بسواها"[٢]، فألف الأمام مالك كتابه المعروف بالموطأ.

ونلحظ من خلال النص أن لأبي جعفر المنصور مدرسة فى الحديث والفقه، فهو يوجه الإمام مالك، ويضع له الأسس التى يسير عليها فى تصنيف كتبه، فهو على علم بالشدائد والرخص والشواذ، كما أنه يعتزم أن يجمع الأمة على الأحاديث الصحيحة والمتفق عليها من جميع الصحابة، لتكون مصدر للفتوى فى كافة البلاد الإسلامية، ومصدراً للقضاء.

واقتفي المهدي سيرة والده فى التشجيع على التأليف والتصنيف، فهو يعد أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين[٣].

وأما الخليفة المأمون وهو عالم خلفاء بني العباس، فقد كان حريصاً على تشجيع العلماء على التأليف فى كافة المجالات. فقد أمر الفراء، أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، ولكي يحقق هدفه، أمر أن تخصص للفراء حجرة من حجر دار الخلافة، ووضع بها كافة الإمكانات والتجهيزات لراحة هذا العالم، حتى

---

(١) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٣٣٧، أحمد شلبي: فى قصور الخلفاء العباسيين، ص٧٦.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج٢، ص٣٢٣.

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٣٩، زهير الكسبي : موسوعة خلفاء المسلمين، ج٢، ص١٧.

لا يتعلق قلبه فى شيء غير العلم والتأليف، كما جمع الوراقين لمساعدته في النسخ والتدوين(١).

وهذا العلم من قبل المأمون، يعد بادرة حسنة في أن الخلفاء أصبحوا يخصصون غرفاً فى دار الخلافة للتأليف والتدوين، تشجيعاً منهم في دفع حركة التأليف والتصنيف وتطويرها. ولغزارة علم المأمون، وسعة ثقافته، فقد ألف بعض الكتب منها : كتاب جواب ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد، ورسالة فى حجج مناقب الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ورسالة في إعلام النبوة(٢).

كذلك كان الخليفة الواثق لا يباري فى علمه وأدبه حتى سمي المأمون الأصغر لأدبه وفضله، تشبيها له بعمه المأمون، وقد شغف بالوقوف على آراء العلماء، والحكماء، فطلب من حنين بن إسحاق؛ أن يؤلف كتاباً يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء، فألف كتاباً وأسماه : "كتاب المسائل الطبيعية" ومن هنا يعد العصر العباسي الأول عصر التأليف والتصنيف،.وإن النضج العلمي والاتصال بالنتاج الأجنبي، مع ما وصل إليه من دقة التأليف والتنظيم، قد كانا من أهم الأسباب التى نقلت الإنتاج العلمي فى البلاد الإسلامية من التدوين فحسب، إلى التصنيف المنظم، ثم سارت حركة التصنيف قدماً ولم تتوقف، وأخذت طريقها نحو الدقة وحسن الترتيب(٣).

تشجيع النقل والترجمة :

من مظاهر تشجيع الخلفاء للعلم، تبنيهم لحركة الترجمة ودعمها بكل الوسائل والمعطيات.

---

(١) وكان نتاج ذلك كتباً عديدة للفراء أشهرها : كتاب المعاني، وكتابات فى المشكل، أنظر ابن الجوزي، ج١٠، ص١٧٨، ياقوت : معجم الأدباء، ج٥، ص٦٢٠، ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٠، ص٧٠١.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٩٨، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٧١.

(٣) أحمد شلبي : فى قصور الخلفاء العباسيين، ص٧٧.

هذا ولم تكن حركة الترجمة وليدة العصر العباسي الأول، بل أنها وجدت منذ العصر الأموي الذى يعتبر بداية انطلاق حركة الترجمة[١]، حيث كانت محاولات فردية، ولم تتعد الصناعة والطب والنجوم[٢].

وفى عهد الدولة العباسية تطورت واتسعت حركة الترجمة لأن اختلاطها بالفرس كان أكثر، حيث أن دولتهم قامت فى خراسان، وبمساعدة الفرس والموالي، وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبوا إلى الإطلاع على ما عند الفرس واليونان من آثار علمائهم وحكمائهم وفلاسفتهم المتقدمين[٣].

والخليفة المنصور، أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية[٤].

ولقد كان الخلفاء العباسيون يعقدون الصفقات لشراء الكتب الأجنبية، ويدفعون فى سبيلها أغلى الأثمان. وقد بدأت هذه الصفقات فى عهد المنصور، حيث بعث إلى ملك الروم، فى طلب كتب العلم، ثم تتابعت جهود الخلفاء فى هذا التبادل الثقافي، وكان الرشيد ينفق بسخاء على الترجمة والمترجمين، ممن يترجمون الكتب القديمة التى أحضرت من أنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم[٥].

---

(١) كان خالد بن يزيد بن معاوية – أحد أبناء الأمويين – له همة عالية ومحبة للعلوم، فأمر جماعة من فلاسفة اليونان من سكان مصر – ويعرفون العربية – أمرهم بنقل الكتب من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربية، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة. أنظر أبن النديم : الفهرست ص٣٣٨، سميرة المصيان : الحركة العلمية فى بغداد، ص١٢٨.

(٢) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢٤١.

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٨٣، محمد بك الخضري : الدولة العباسية، القاهرة ١٩٩١، ص٢١٠.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٣٧، زهير الكسبي : موسوعة خلفاء المسلمين، ج١، ص١٠.

(٥) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : العالم الإسلامي فى العصر العباسي، القاهرة ١٩٩٢، ص٢١٣.

ولقد سخر المأمون كل الإمكانيات، وطرق كل السبل، ليجمع الكنوز الفكرية الحبيسة من كتب ومؤلفات، فى مكتبات القسطنطينية وقبرص، وقد كان بين المأمون وبين إمبراطور الروم مراسلات، فكتب إليه المأمون يستأذنه فى حمل ما يختار من العلوم القديمة المخزونة والمدخرة فى بلاد الروم، فأذن له بذلك، فأرسل المأمون جماعة من العلماء والمفكرين[١] أخذوا ما تم اختياره، وتوالت وفود العلماء إلى بلاد الروم لاختيار الكتب، فجاءوا بطرائف الكتب، وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقي والأرثماطيقي والطب[٢].

ولشغف المأمون بالعلوم العقلية – وخاصة الفلسفة والجدل – ذكر أنه رأي فى منامه الفيلسوف اليوناني ارسطاليس، حيث سأله عدد من الأسئلة فأجاب عليه، ويذكر ابن النديم[٣] : أن هذا المنام من أهم الأسباب التى دفعت المأمون لجلب الكتب من خزائن الروم. ولما اجتمعت للمأمون هذه المكنونات من نفائس المؤلفات كلف المترجمين المهرة بترجمتها ترجمة محكمة، فترجمت له بإتقان. ولم يتوقف تشجيع المأمون عند ترجمة هذه الكتب فقط، بل إنه أمر الناس بقراءتها، ورغبهم فى تعليمها[٤].

وبعد أن حصل الخلفاء على كم هائل من مؤلفات قدماء اليونان والرومان والفرس، وجمعوا تراثها اعتنوا بترجمتها ففرغوا لها العلماء والمترجمين، الذين لم يقتصر دورهم على النقل والترجمة، بل علقوا عليها وشرحوها وناقشوها وأضافوا إليها إضافات، وطبقوا ما فيها من نظريات، ثم ألفوا فى مواضيعها تأليفاً علمياً[٥].

---

(١) حصر ابن النديم فى كتابه الفهرست ص٣٤٠-٣٤٢، أسماء المترجمين والنقلة من اللغات سواء الفارسية أو اليونانية أو الهندية إلى العربية.

(٢) ابن النديم : المصدر السابق، ص٣٣٩ ، ٣٤٠.

(٣) ابن النديم : الفهرست، ص٣٣٩.

(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص١٢٠.

(٥) أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته ونظمه القاهرة ١٩٥٩، ص٥٢٩.

وكان الخليفة المأمون من أشد الخلفاء اهتماما بالترجمة، كما أسلفت. وقد قسم بعض المؤرخين الترجمة فى العصر العباسي الأول إلى ثلاثة مراحل :

- المرحلة الأولى : تبدأ من خلافة المنصور عام ١٣٦هـ/٧٥٤م إلى آخر عهد الرشيد عام ١٩٣هـ/٨٠٩م : ويعد أبو جعفر المنصور واضع أساس الترجمة فى الدولة العباسية، ولعل ميله إلى التنجيم كان أول باعث له على تشجيع حركة النقل الترجمة، ولأن صناعة النجوم منتشرة عند الفرس لذا قرب المنصور المنجم الفارسي نوبخت، وكان يصحبه معه حيثما توجه، واستقدم الطبيب جرجيس بن بختيشوع، وعدد من السريان والفرس والهنود، فأمرهم بترجمة الكتب الأجنبية، فترجموا له كتباً فى النجوم والطب ومنها كتاب (السند هند الكبير) فى الفلك، وكتاب اليتيمة فى الرسائل، وترجمت له كتب فى الأدب والمنطق، منها كتاب كليلة ودمنة، وهزار أفسانه، وكتاب مزدك، وكتاب خدينامه فى السير، وكتاب التاج فى سيرة أنوشروان ، وكتاب الأدب الكبير[١]، وفى عهد المهدي والهادي، سارت حركة الترجمة سيراً طبيعياً بما يقوم به الأطباء والعلماء من تعريب ونقل، وأما فى عهد الرشيد، وبسبب اتساع الجدل الديني، الناتج عن الاتصال بالشعوب والثقافات للفرق والأديان الأخرى، فقد دفعت هذه العوامل حركة الترجمة إلى التطور النمو، فاهتم العرب بكتب الفلسفة والأدب، وساهم الرشيد فى جمع العديد من الكتب الأجنبية، نظراً لكثرة حروبه وغزواته فى بلاد الروم، كما ساهمت أسرة البرامكة – التى تعود إلى أصول فارسية – بجهد كبير وفعال فى سبيل دفع حركة الترجمة إلى الأمام، حيث أمرهم الرشيد بنقل كثير من الكتب الفارسية واليونانية والهندية، فنقل كتاب المجسطي، ونقلت كتب فى الطب عن الهندية،

---

(١) أبن النديم : الفهرست، ص١٧٢، السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٣٧ ، ٢٣٨، إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢٤٣، أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته ونظمه، ص٥٣٠.

ونقل كتاب اقليدس النقلة الأولى، وسميت الترجمة الهارونية نسبة إلى هارون الرشيد، وترجم الكتاب مرة أخرى فى عهد المأمون وسميت الترجمة المأمونية، ونقلت بعض كتب ارسطوا فى المنطق، وبعض مؤلفات أفلاطون، وأهم كتب جالينوس فى الطب، وفى هذه المرحلة دخلت الفلسفة اليونانية إلى مؤلفات العرب(١)، بسبب كثرة ما ترجم من مؤلفات الفلاسفة اليونان وإطلاع العلماء عليها ودراستها. ومن أشهر المترجمين فى هذه المرحلة : محمد بن إبراهيم القزازي، ويحيى البطريق، وجرجيس بن جبرائيل الطبيب، ويوحنا بن ماسويه(٢) وكذلك عبد الله بن المقفع(٣).

- المرحلة الثانية : عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) : وتعد هذه المرحلة أقوى مراحل الترجمة، لأن المأمون والذى يعتبره المؤرخون أحد العلماء البارزين فى العصر العباسي لو لم يكن خليفة، وذلك أنه نشأ فى بيئة علمية، وعاش فى وسط علمي، وقد تأثر بالأفكار الفلسفية التى تناقش فى المناظرات التى تعقد فى قصر والده الرشيد لذا مال إلى مذهب الاعتزال الذى يعتمد على العقل فى تفسيره للأشياء، كما أنه اتخذ من حاشيته عدداً من علماء اليونان والفرس(٤) وتوارد إليه الأدباء والحكماء من كل بلد، وانفق بسخاء على الترجمة، وشجع عليها حتى أنه كان يعطي وزن ما يترجم له ذهباً وكان يضع علامة على كل كتاب يترجم له، كما يشجع الناس على قراءة الكتب المترجمة ويرغبهم فى تعلمها، ويضع الجوائز الثمينة للفائزين فى المناظرات

---

(١) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣١، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) إبراهيم ابو الخشب : تاريخ الأدب العربي ص٢٤٣، NAGEL, P96.

(٣) ابن النديم : المصدر السابق، ص١٧٢، حسن أحمد وأحمد إبراهيم : العالم الإسلامي فى العصر العباسي، ص٢١٤.

(٤) مثل الحسن بن سهل وأخيه الفضل، وطاهر بن الحسين وغيرهم. أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، ص٥٢٠.

التى كانت تجري تحت إشرافه المباشر، وقد شملت الترجمة جميع المواضيع، ففى الفلسفة ترجمت كتب أفلاطون وارسطو، وفى الطب ترجمت كتب سقراط وجالينوس، وفى الرياضيات والنجوم كتب اقليدس وارخميدس، هذا وقد أقيمت مراصد جوية مختلفة فى عهد المأمون فى بغداد ودمشق[١]. ومن أشهر المترجمين فى هذه المرحلة يوحنا البطريق مولي المأمون، والحجاج بن يوسف بن مطراك الوراق، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي، وحنين بن إسحاق، وثابت بن قرة الصابئ، وجبرائيل الكحال، والحسن بن سهل بن نوبخت، وموسي بن شاكر، وأبناءه محمد وأحمد والحسن وغيرهم[٢].

- المرحلة الثالثة : النقل والترجمة بعد المأمون : واستمرت هذه المرحلة إلى ما بعد العصر العباسي الأول، حيث استمر الناس فى النقل والتصحيح والتحقيق، وشاعت اللغات الأعجمية بين الناس، فأصبحت الهندية واليونانية والفارسية لغات شائعة عند الطبقات المتأدبة التى لم تصل إلى رتبة العلماء[٣].

ومن أهم ما ترجم فى هذه المرحلة كتاب : الفلاحة النبطية نقله أحمد بن على بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية، وترجمت أسفار التوراة، حيث نقلها سعيد الفيومي، وكتب عديدة من آداب الهند وعلومهم، نقل بعضها أبو ريحان البيروني[٤].

طرق الترجمة :

---

(١) أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته ونظمه، ص٥٣٣، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٣، إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢٤٤، CAHEN, HISTORY OF MUSLIM PEOPLE, LONDON, 1975, P.107.

(٣) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٣.

(٤) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٣.

اتبع المترجمون طريقتين فى ترجمة ونقل الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

الطريقة الأولى : وتعتمد على ترجمة كل كلمة وحدها بما يقابلها فـي اللغـة العربية، وهي طريقة غير سليمة ولا تؤدي بالمعني الصحيح والمفهـوم المـراد مـن الكتاب، لأنه لا يوجد فى اللغة العربية كل الكلمات، فى اللغات، ولأن تركيب الجمـل يختلف من لغة إلى لغة أخرى(١)، واتبع هذه الطريقة ابـن البطريـق وابـن ناعمـة والحمصي(٢).

والطريقة الثانية فى الترجمة، والتى سار عليها معظم المترجمين. وتعتمد هذه الطريقة على قراءة الجملة أو الفصل واستيعاب المعني الصحيح، ثم وضعه فى قالـب عربي واضح، وهي الطريقة الأفضل والأصلح، ومن سار على هـذه الطريقـة فـي الترجمة هم ممن عرف بصدق المعرفة وسعة الإطلاع، والنزاهة واستقامة الأخـلاق، فضلاً عن معرفتهم الواسعة باللغة العربية واللغة التى يترجمون عنها(٣).

ومن أشهر من سار على هذه الطريقة : حنين بن إسحاق، وثابت بـن قـرة، وقسطا بن لوقا(٤).

ويلاحظ أن العرب ترجموا فى قرن ونصف ما لـم يسـتطيع الرومـان ولا غيرهم ترجمته فى عدة قرون(٥).

وبكل فخر نورد ما امتدح به أحد المؤرخين الأجانب ما ترجمـه المسـلمون ونقلوه من تراث الحضارات السابقة حيث يقول : "سعي العرب سـعياً منظمـاً إلـى الإطلاع على الآثار الإغريقية بالذات فترجمت أولاً إلى السريانية وهي لغة سامية ثـم

(١) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٣.
(٢) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٣.
(٣) أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٣٤.
(٤) أنور الرفاعي : المرجع السابق.
(٥) إبراهيم أبو الخشب : تارخ الأدب العربي ص٢٤٥.

ترجمت مباشرة إلى العربية، وفى الحالتين تعرض المترجمون إلى مشاكل صعبة فى قضية الملاءمة بين لغتين مختلفتين، ولابد من التنويه بأنه لا توجد وقتئذ معاجم بين أيدي هؤلاء المترجمين، ونحن لا يسعنا إلا أن نعجب بدقة العمل الذى انجزوه كلما سنحت لنا فرصة المقارنة، وهناك بالإضافة إلى ذلك آثار قديمة مفقودة لم يحتفظ بها إلا عن طريق اللغة العربية(١).

دار الحكمة "بيت الحكمة" :

من ثمار التشجيع والدعم المستمر من الخلفاء العباسيين للحركة الفكرية والعلمية والترجمة، أن أصبح مخزون دار الخلافة من الكتب سواء المترجمة، أو التى ألفها العلماء فى مختلف الفنون والعلوم. فكان من المفيد تخصيص مكان لجمع هذه الكتب، وليكون مكاناً للعلم والترجمة، خاصة وأن بغداد كانت مقصد للعلماء والمفكرين وطلاب العلم من كافة أقطار الولايات والأمصار الإسلامية فى العصر العباسي الأول(٢)، ولهذا رأي الخليفة هارون الرشيد(٣) أن ينشئ دار خاصة بالكتب من أجل حفظها وتكون مكاناً يقصده العلماء للتأليف، والطلاب لطلب العلم، فألحق بقصر الخلد عدداً من الحجرات والخزائن التى أطلق عليها بيت الحكمة أو دار الحكمة(٤)، ونقل إليها الرشيد كل ما عثر عليه من كتب هندية وفارسية ويونانية، وقد رتبت فيها الكتب

---

(1) CAHEN, PP.107,108

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج٤، ص٢٠٦.

(٣) يري بعض المؤرخين العرب والأجانب أن مؤسس دار الحكمة هو المأمون، ومنهم عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول ج١، ص٣٥٠، محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص١٣٥. NAGEL, P96 & CAHEN, P102، والراجح أنها أنشئت فى عهد الرشيد، وتطورت تطوراً كبيراً فى عهد المأمون أنظر= = ابن النديم الفهرست ص٢٧٤، ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها ص٣٥٧، أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته، ص٥٤٤، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٨٤.

(٤) حسن احمد واحمد إبراهيم : العالم الإسلامي فى العصر العباسي، ص٢٠٦، سميرة الحصينان : الحياة العلمية فى بغداد، ص٢٦٥.

ووضعت على رفوف خاصة بحسب لغتها وفرع العلم الذى ألفت فيه، ورتبت أماكن للقراءة والمطالعة وعين فيها موظف لحفظها ومساعدة القراء فيما يحتاجونه من كتب، إضافة إلى ذلك كانت تضم عدداً من المترجمين لنقل الكتب الأعجمية إلى العربية، وخصصت لهم أروقة خاصة بهم، وكان النساخ ينسخون هذه الكتب، وقد قلد الرشيد يوحنا بن ماسويه مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب(١).

ويلاحظ أن معظم الكتب المترجمة نقلت عن الفارسية والهندية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن يحيى بن خالد البرمكي – وزير الرشيد – الذى كان فى أوائل خلافة الرشيد يدير شئون الدولة، وحيث أنه فارسي الأصل، فقد اهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس، فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية، وعين لترجمتها أشخاصاً لهم خبرة ومعرفة باللغة الفارسية والعربية، ومنهم : الفضل بن نوبخت، وعلان الشعوبي، وكان للفرس صلة بالهنود ولا يهم معرفة بالثقافة الهندية، لذا أرسل يحيى بن خالد فى طلب بعض علماء الهنود المشهورين، وعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم إلى العربية، وبواسطتهم نقلت كثير من فنون الثروة العلمية من الهندية إلى العربية(٢).

وقد انفق الرشيد الأموال الطائلة على العلماء والترجمة والتأليف(٣)، وحرص الرشيد على ألا يكون نشاط بيت الحكمة معتمداً على سخاء الخليفة والأمراء، لذا جعل للعلماء أرزاقاً معلومة يتاقضونها فى أوقات ثابتة(٤).

---

(١) أحمد شلبي : فى قصور الخلفاء العباسيين، ص٨٧، إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢٤٦، أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٤٤.

(٢) أحمد شلبي : المرجع السابق، ص٨٧-٨٨، أنور الرفاعي : المرجع السابق، ص٥٤٤، حسن أحمد وأحمد إبراهيم : المرجع السابق، ص٢١٤.

(٣) فتحية النبراوي : تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٤م، ص٢٦١، ضيف الله الزهراني : النفقات وإداراتها، ص٣٥٧.

(٤) ضيف الله الزهراني : المرجع السابق، ص٣٥٨.

وفى عهد المأمون والذى يعد من أزهي العهود العلمية فى العصر العباسي – بوجه عام – وصلت الجهود الثقافية إلى الذروة، حتى أنه اقترن أسمه بتلك النهضة العلمية فى العصر العباسي عامة، وفى عهده بوجه خاص، لذا ازدهرت بيت الحكمة خلال عهد المأمون. حيث عمل على تهيئة السبل وتذليل المصاعب أمام حركة الترجمة والتأليف وأجرى الأموال من بيت المال، وعين كثيراً من المترجمين والنقلة والنساخ ومن يقوم على الخدمة فى بيت الحكمة[١].

ولحرص المأمون على إتقان الترجمة، جعل للمترجمين يوماً فى الأسبوع يجتمعون فيه بعلماء اللغة ليطلعوا على ما ترجم من كتب فيصححوه ويقرروه[٢].

وكان من مهام بيت الحكمة نسخ الكتب ثم ترجمتها إلى العربية، وفيها رئيس للمترجمين ومساعدين وأعوان، وكان فيها مجلدون وقد انيطت رئاسة بيت الحكمة فى عهد المأمون إلى سهل بن هارون، أحد وزراء المأمون، ويشرف على المكتبة[٣].

وعين المأمون بعده حنين بن إسحاق مشرفاً على دار الحكمة[٤]،وأُلْحقَ بها خزانة، عرفت بخزانة المأمون، واعتبرت أكبر مكتبات بغداد، وبها دار للعلم، ودار للترجمة، وتحتوي على مرصد فلكي، وكانت من أعظم المعاهد الثقافة التى أنشئت، وهي أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الإسلامي، بل يمكن القول أنها أول دار للعلم أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدراسة والترجمة ويلجأ إليها الطلاب

---

(١) ضيف الله الزهراني : المرجع السابق، ص٣٥٧، احمد مختار العبادي : فى التاريخ العباسي والفاطمي، ص١٠٨، محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة العباسية، ص٥.

(٢) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي ص٢٤٧.

(٣) ابن النديم : الفهرست ص١٧٤، أنور الرفاعي : الإسلام فى حضارته ونظمه ص٤٤٥، NAGEL, P.96.

(٤) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : العالم الإسلامي فى العصر العباسي، ص٢١٤.

فكانت مركزاً علمياً شمل جميع العلوم المختلفة كالطب والفلسفة والأدب والتاريخ وسائر العلوم العقلية والنقلية(١).

وقد ظلت خزانة بيت الحكمة مكانا لجمع الكتب المترجمة والمؤلفات، ومصدراً لنشر الثقافة بين الناس، ومركز إشعاع تقدم الحركة العلمية طوال العهد العباسي حتى استولي المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م(٢).

النشاط العلمي فى دار الخلافة :

لقد كانت مجالس الخلفاء مدارس علم ومواطن معرفة، وملتقي أفكار ومنارات إشعاع، حيث تحتك العقول، وتتصارع الآراء بين أقطاب الثقافة، وفحول العلم والمعرفة، ولاشك فإن هذا كله نتاج لما امتاز به خلفاء العصر العباسي الأول من غزارة العلم والمعرفة وسعة الثقافة، حتى أن المنصور كانت له دفاتر علم أوصي ابنه المهدي بمطالعتها والحفاظ عليها(٣). والنشاط العلمي فى دار الخلافة ظهر – غالباً – على هيئة مناظرات ومناقشات وحوارات، فى سنتي العلوم والمعارف والفنون، وغالبا ما كان الخلفاء يديرون هذه المناظرات، أو يكونوا طرفاً فيها، أو مستمعين أو مشاهدين.

فلقد كان بعض الخلفاء(٤) يجلس مع العلماء والمتعلمين فى مجلسه من أول النهار إلى آخره يتناظرون بين يديه، فيرشدهم ويمدهم بالأموال والكتب ويتفقدهم وإذا

---

(١) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : المرجع السابق ص٢١٤، فتحية البنراوي : تاريخ الدولة العباسية ص١٣٥.

(٢) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص١٤٢، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٨٥.

(٣) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي ص١٣٨، عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول ج١، ص٣٤٩.

(٤) مثل المأمون. أنظر ابن دحية : النبراس، ص٤٨.

غابوا، فإنه يزورهم فى بيوتهم[١].

ولقد جمع بلاط[٢] الخلفاء العباسيون الفلاسفة والعلماء. وكانوا يتدارسون القرآن والحديث والفقه والمسائل المتفرعة عنها[٣].

ويتم تحديد الخليفة لمن يحضر معه المناظرات، بتفويض أحد الوزراء أو المقربين لخليفة ليختار من الفقهاء والعلماء، ممن يكونوا أهلاً لحضور مجلس الخليفة للمشاركة فى المناظرات والحوار مع الخليفة والإجابة على استفساراته، أو الجدل مع المخالفين فى الآراء والأفكار، كما يتم تحديد كل يوم من أيام الأسبوع للمناظرة والمذاكرة فى علم معين[٤]. وكان من الرسوم المتبعة فى حضور المناظرات مع الخلفاء، أن يدخل العلماء والفقهاء المشاركون فى حجرة مفروشة، ويسمح لهم بنزع عمائمهم وأخفافهم، ثم تحضر الموائد، ليأكلوا منها، وبعد ذلك يجددوا وضوئهم، ثم يؤتي بالمجامر فيبخوا منها ويتطيبوا، ثم يؤذن لهم بالدخول على الخليفة فيدنيهم، ثم يبدأوا بالمناظرة، ويشاركهم الخليفة، فيبدي رأيه ويطرح استفساراته، ويستمرون حتى تزول الشمس، حيث تنصب مائدة ثانية، فيأكلوا منها، ثم يؤذن لهم بالانصراف[٥]، ولقد نشطت المناظرات فى دار الخلافة، ويعود ذلك لعدة عوامل منها :

- مشاركة الخليفة فى المناظرات التى تقام فى دار الخلافة فإن عظم منزلته وجلالة قدره، مع مشاركته فى الرأي والحجة وترجيح بعض الجوانب على الأخرى بما عنده من العلم، وما لديه من تحصيل، ولا يقتصر فى ذلك على

---

(١) ابن دحية : المرجع السابق، ص٤٨.

(٢) البلاط : هو ذلك النمط من الحياة المتكلفة وسط أفراد الحاشية والقيادة وهو إغراء يجذب العلماء والشعراء إليه لما فيه من جوائز ثمينة يحصلون عليها أنظر CAHEN, P.101.

(٣) فاروق عمر : الخلافة العباسية، ج١، ص٢٣٤.

(٤) البيهقي : المحاسن والمساوئ، ص ١٧٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٨٧.

(٥) المسعودي : مروج الذهب، ج٤، ص١٩.

فن واحد، أو معرفة معينة، أو ثقافة خاصة، لكنه كان ملماً بأكثر من ناحية وعالماً بكثير من العلوم، فيخوض فيها خوض الحاذق، ويجادل فيها جدل المتأمل الواعي، وقد عرف عن الخلفاء الذين اعتلوا عرش الخلافة منذ أيام أبي العباس حتى الواثق والمتوكل كانوا على الصفة المذكورة(١).

ولقد كان المنصور فى أثناء زيارته للإمام مالك فى أحد مواسم الحج يتجادل معه فى أحكام الشريعة، ويجادل فى الأحاديث، وقد وجه المنصور الأمام مالك بتوجيهات عظيمة وحثه على تأليف كتاب يشمل أحاديث نبوية تكون بمثابة المنهل الذى يستنير منه الناس، وقد اعترف الأمام مالك بذلك الفضل وسداد التوجيهات التى تلقاها منه(٢)، وهذا النموذج واضح لسعة ثقافة الخلفاء.

وقد كان المهدي يوزع أيامه على العلوم والفنون، فيستقبل العلماء فى يوم، والأدباء فى يوم، وكان كل جماعة من هؤلاء يعرضون عليه ما وصل إليه علمهم، وكان يناقش فى ذلك كله عن سعة علم وكثرة وعي، وعمق فى التفكير، وإذا شعر من أحدهم تقصيراً شجعه وحثه على المزيد(٣).

والباحث فى التاريخ العباسي لا يخفي عليه المشاركة الفعالة للرشيد فى المناظرات التي يعقدها فى قصره فى كافة العلوم والفنون، وكان يدلي برأيه فيما يعرض من مواضيع(٤).

---

(١) انظر نموذج مناظرة الخليفة المأمون عند أبن طيفور : كتاب بغداد ص٤٧، إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢١٩.

(٢) ابن قتيبة : الأمامة السياسة، ج٢، ص٣٢٢، إبراهيم أبو الخشب : المرجع السابق، ص٢١٩.

(٣) إبراهيم أبو الخشب : المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج١٠، ص١٦٣.

ومن أشهر الخلفاء العباسيين سعة فى العلم المأمون، فقد كان عالما فحلا، وأديباً كبيراً وفيلسوفاً لا يسبر غوره، فقرب علماء الجدل والمنطق، وأرباب الرأي، وكان يجادلهم بالحجة والبرهان ويتلذذ بمذاكرتهم[١].

وعلى الرغم من أن المعتصم ضعيف القراءة والكتابة إلا أنه سار على طريقة أسلافه، فيدير حلقات العلم والأدب، ويحاور ويجادل فى المناظرات[٢]. كذلك كان الواثق لا يخلوا مجلسه من أكابر العلماء والمحدثين، فيطرح عليهم الأسئلة ويجادلهم ويحاورهم، وكثيراً ما ينتج عن هذه المناظرات معلومات قيمة، لذا يأمر الواثق بجمعها فى مؤلفات للإفادة منها[٣] وهذا ما يثري حركة التأليف. وهكذا يتضح أن المشاركة الفعالة للخلفاء فى المناظرات التى تعقد داخل دار الخلافة، هو من أكبر العوامل الفعالة فى إثراء النشاط العلمي فى دار الخلافة.

ومن عوامل نشاط المناظرات فى دار الخلافة، التنافس الحاد بين الآراء المختلفة والمدارس المتنوعة، فكان أصحاب كل رأي أو مدرسة يحاورون ويجادلون، ويثبتون أقوالهم بالحجة والبرهان، ليؤكدوا قوة رأيهم وصحة أدلتهم، وكان العلماء يستعدون للمناظرة ويتسلحون لها رغبة فى الشهرة وكسب ثقة الخليفة[٤].

ومن أشهر المناظرات التى نشطت بسبب التنافس، ما حدث بين الكسائي وسيبويه النحويين، وقد بسطت كتب الأدب واللغة، وفندت مناظراتهم وحواراتهم حول عبارة : كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها؟ [٥]. وكانت هذه المناظرة عاملاً فى إشعال روح التنافس بين مدرستي النحو

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٤، ص١٩ ، ٢٠، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص١٢٠، إبراهيم أبو الخشب : المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) إبراهيم أبو الخشب : المرجع السابق ص٢٢٠.

(٣) المسعودي : مروج الذهب، ج٤، ص٧٧. H. KENNEDY, ART, ABBASID, E.I.2.

(٤) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : العالم الإسلامي فى العصر العباسي، ص٢٠٥.

(٥) للوقوف على تفاصيل هذه المناظرة أنظر : ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٥٠١-٥٠٣.

الكوفية والبصرية[١].

كذلك كانت المناظرة تقوم للتنافس بين عالمين فى علمين مختلفين مثل النحو والفقه، مثل ما كان بين أبي يوسف القاضي – صاحب الإمام أبو حنيفة – والكسائي فى مجلس الرشيد[٢].

ومن أشهر مناظرات المأمون الذى كان يري أن تثار بين يديه المسائل الدينية، فيسمع جميع الآراء، ثم يفصل فى أوجه الخلاف على ضوء الحجج، وكان هدفه اجتماع هذه الآراء لصالح الدين[٣].

ومن عوامل نشاط المناظرات فى دار الخلافة بوجه خاص وفى مدينة بغداد بوجه عام، إنشاء المكتبات وكثرة اقتناء الكتب[٤]،ومن أهم هذه المكتبات دار الحكمة، وما كان من نشاط فى حركة الترجمة والتأليف فيها، كذلك كانت المناظرات والحوارات تدور فى هذه المكتبة بين العلماء والحكماء فإذا التقى العلماء والمفكرون واجتمعوا – غالباً – ما ينتج عن هذه الاجتماعات أفكار ومعلومات ومؤلفات قيمة تفيد فى تطور وتنشيط الحركة العلمية.

وقد ساعد على نشاط المناظرات العلمية، إعطاء الخلفاء العباسيين للعلماء والمفكرين الحرية فى الاعتقاد والتفكير مادام ذلك لا يمس الخلافة، ولا ينال من الخليفة القائم، وقد كان المسلمون فى العصر الأموي بين شيعة ومعتزلة ومرجئة وأهل

---

(١) كان رئيس مدرسة الكوفة والبصرة الكسائي وسيبويه، أنظر أحمد شلبي فى قصور الخلفاء العباسيين، ص٨٤-٨٥.

(٢) ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٩١. ومعجم ياقوت مليء بصور ونماذج مشرقة لمناظرات وحوارات علمية درات فى مجالس الخلفاء العباسيين، وكانت تحظي بمشاركتهم واهتمامهم.

(٣) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : العالم الإسلامي، ص٢٠٥، محمد بك الخضري : الدولة العباسية، ص٢٠٢.

(٤) حسن أحمد وأحمد إبراهيم : المرجع السابق، ص٢٠٥.

السنة والجماعة، أما بعد ذلك، فقد فتحت الدولة العباسية الباب على مصراعيه، وعلى الرغم من أنه صار للجدل أصول ثابتة تراعي، وقواعد متبعة، فإن الشبه كثرت والفرق تنوعت، والخصومات والحوارات العلمية والأدبية زادت اشتعالاً وتوقداً(١). ومن أهم آثارها السلبية امتحان العلماء بخلق القرآن فى عهد المأمون والمعتصم.

أهداف ومواضيع المناظرات :

تعد المناظرات وسيلة من وسائل تشجيع العلم، والتي انحصر – تقريباً – النشاط العلمي فى دار الخلافة عليها. لذا فإن أهدافها غالباً علمية بحتة تضمنت العلوم الدينية والأدبية.

فمن مواضيع المناظرات وأهدافها إثراء فكر الخليفة، وإشباع رغبته فى المعرفة والعلم، فتعقد المجالس للنظر فى مواضيع متعددة فى العلوم من العقليات والسمعيات(٢).

وكانت تبدأ هذه المناظارات بسؤال يطرحه الخليفة على جلسائه من العلماء والفلاسفة والمتطببين(٣).

وكان من أهداف المناظرات التى تقام داخل دار الخلافة، التباحث فى الحديث الشريف، وهذا الهدف من اسمي أهدافها فيروي حديث عن رسول الله، ويبدأ المتناظرون فى شرح معانيه والتعرف على مغزى ألفاظه(٤).

كذلك كانت المناظرة تتطرق إلى رواة الحديث ورجاله، ورد الأحاديث الكاذبة

---

(١) إبراهيم أبو الخشب : تاريخ الأدب العربي، ص٢٢٤.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج١٠، ص٢٠٨، محمد بك الخضري : الدولة العباسية، ص٢٤٣.

(٣) المسعودي : مروج الذهب، ج٤، ص٧٧.

(٤) البيهقي : المحاسن والمساوئ، ص٤٥٤، عباس الغساني : نزعة الظرفاء وتحفة الخلفاء، مخطوط ورقة٨.

عن رسول الله[١].

وكانت علوم اللغة مجالاً للمناظرات فعلم النحو من المواضيع المهمة التى عقدت أشهر المناظرات فيه[٢]،حيث كان رواد المدارس النحوية يتناظرون فى دار الخلافة بحضور الخليفة، مما أسهم فى تطور هذا العلم.

هذا ويعد الشعر مجالاً خصباً للمناظرات والمحاورات فى دار الخلافة، وكان الخليفة يشارك فى الشعر، حتى أن الخليفة المأمون جاءه أحد الشعراء[٣] فأنشده قصيدة من مائة بيت، فيبتدئ البيت، ثم يبادره المأمون إلى قافيته كما قفاه الشاعر، فلما سأله الشاعر قال : "هكذا ينبغي أن يكون"[٤].

وكان الخليفة يطلب سماع الشعر فى مواضيع محدودة لمعرفة معاني بعض الألفاظ الغريبة[٥].

ومن أهداف المناظرات كذلك، إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه من المذاهب والأفكار والمعتقدات، ومحاولة الجمع بين أصحاب الطوائف على ما هو أصلح للدين، وكثر هذا النوع من المناظرات فى عهد الخليفة المأمون الذى اعتقد بفكرة خلق القرآن، وحاول فرضه على عامة الناس، وامتحن فيه العلماء، فقد أمر بعقد المجالس للمناظرة التى تُذكر فيها الأدلة والحجج والبراهين[٦]. وكان الخليفة يتعرض أحياناً لأسئلة بعض الأفراد الذين يتصفون بالجرأة، فقد سأل رجل المأمون وهو فى

---

(١) ابن طيفور : كتاب بغداد، ص٤٧، ابن الجوزي : المنتظم، ج١٠، ص١٦٣.

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٦٦، ياقوت : معجم الأدباء، ج٤، ص٥٠١.

(٣) الشاعر هو عمارة بن عقيل أنظر ابن الأثير : الكامل، ج٦، ص٤٣٦.

(٤) انظر الخبر كاملاً، ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٤٣٦.

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٧٨.

(٦) ابن طيفور : كتاب بغداد ص٤٨ ، ٤٩، عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ج١، ص٣٦٦، محمد بك الخضري : الدولة العباسية، ص٢٠٢.

مجلس الخلافة بقوله : أخبرني عن هذا المجلس الذى أنت فيه جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر؟ فرد عليه المأمون رداً حكيماً، ينبئ عن علم وعقل وفهم وإبداع[١].

وقد تدخل السياسة فى مجال المناظرات، فمن أهداف المناظرات فى دار الخلافة أن يناظر الخليفة جماعة من بلد ما يشكون عاملهم، فيصفون أحوالهم وكيف تبدلت بعد تولي هذا العامل بلدهم[٢].

وكانت تعقد المناظرات فى دار الخلافة فى علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة، وغالباً ما يشارك فى هذه المناظرات من علماء الفرس أو الروم ومن الأطباء[٣].

ويستخلص مما سبق أن دار الخلافة كانت مركز إشعاع علمي فى الدولة، وليست مجرد مقر للحكم والسياسة، وذلك يعود إلى تربية الخلفاء وثقافتهم التى جمعت الكثير من فروع العلوم والفنون المختلفة.

---

(١) المسعودي : مروج الذهب، ج٤، ص٢٠ ، ٢١، السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص٢٨٥.

(٢) المسعودي : المصدر السابق، ص١٩.

(3) NAGEL, P.104.